

1- أثر الفقه الاسلامي في مدونات الغرب :

المصطلح الغربي من أول أدوات التقدير

في القانون الأوربي

عبد العزيز بن عبد الله

تتضمن الحضارية الفلسفية والخلقية قد اندرجت في المدونات الأوربية في مختلف مجالات الفكر التشريعي دبلوماسيا وعسكريا ومدنيا .
نعم ان الاتصالات بين الاسلام واوروبا قد وصلت تدريجيا عن طريق الاندلس وصقلية كما تبلورت عن طريق مراسى البندقية وجنوة وبيزة وقد كان التجار الأوربيون يقضون عدة شهور في الشرق في أوائل الخريف ونصف الربيع من كل عام . فكان ذلك أول اتصالهم بالاخلاق والعادات الاسلامية مما تمخض عن نواة القانون التجاري الدولي الذي برز أول ما برز من خلال انتشار مبدأ حرية البحار وذلك منذ القرن الثاني عشر الميلادي . وقد كان للبوحدنين دور فعال في ذلك حيث وضعوا المبادئ الاساسية لهذه القواعد وحاربوا القرصنة باحداثهم مليشية خاصة بتأمين البحار في الوقت الذي كانوا فيه سادة المتوسط مما حدا صلاح الدين الايوبي الى الاستنجاد بالاسطول المرفى ضد الصليبيين . وقد كان — كما يقول اندري جوليان في كتابه (تاريخ الشمال الافريقي) — أول

اما بخصوص المجالات الاخرى وخاصة منها العلوم التي تتصل من قريب او بعيد بالفقه والقانون فقد كان للشريعة الاسلامية اثرها القوي في تكييف التقاليد الأوربية وبلورة اختياراتها منذ القرن التاسع الميلادي اى بعد مرور مدة قليلة على انتشار الدين الجديد في اسبانيا وجنوب فرنسا وايطاليا وبعض الجزر المتوسطية وأبرز هذا المعطاء الاسلامي الجديد هو مبادئ الاخلاق الدولية وقد صنف صديقي وزميلى مارسيل بوازار Marcel Boisard كتابا في هذا الصدد كان اسمه الاول الاسلام والخلق الدولي .

L'Islam et la morale Internationale

وقد عرض على كتابه القيم في مسودته بجزئية تبلي طبعه للمشورة قبل ان ينشره في جزء واحد باسم جديد هو (انسية الاسلام : Humanisme de l'Islam) كما اهداني دراسة اخرى بالغة الانجليزية حول (التأثير المحتمل للاسلام في القانون العمومي والدولي الغربي) .
وقد أصبح اليوم من البديهي ان كثيرا من

التاسع عشر بعد (حرب القرم) وقد نص (ماس لاطرى) على ذلك من خلال معاهدة أبرهما الموحدون انطلاقا من الآية الشريفة « ولا تزر وازرة وزر اخرى » وقد قام اليهود بدور كبير في تسهيل نشر هذه المبادئ التي ادرجوا الكثير منها في تلمودهم دعما لنصوصه التشريعية .

وقد اقتبس (الفونس التاسع) - الحكيم ملك تشنالة وامبراطور الغرب (1272 م) متأثرا بمعطيات الحضارة الاسلامية في النصف الثاني للقرن الثالث عشر - من عدد كبير من المصادر العربية وهو الذي جدد جامعة سالامانكا التي قامت بدور كبير في وضع ما ادى الى القانون الدولي الحديث وقد كتب الفونس هذا اول مدونة قانونية في اوربا سماها Las Siete Partidas (نشرت بتعاليق لاتينية من طرف Gregorio Lopez في ثلاثة مجلدات (مدريد 1829) وقد استهداها خاصة من قانون (الولايات) في الاندلس المسلمة الراجع الى عام 1280 م / 679 هـ .

فكان اقتباسا فعليا من الشريعة الاسلامية . ولا يخفى على المختصين الذين يحاولون التنظير بين نحوى النصوص وتاريخ صنورها هذه النصوص ، ما كان من اثر لهذا الكتاب اللاتيني في نشوء القانون الدولي الاوربي في العصر الحديث .

وقد بدأ فريديريك الثاني Frederik II of

Hohenstauffen ، ملك صقلية وامبراطور جرمانيا (1250 م) ، يستمد من التراث الاسلامي وهو الذي اسس جامعة نابلس عام 1224 م وجعلها بالمخطوطات العربية وكان (طوماس الاكوينى) (المتوفى عام 1274 م) من تلاميذه وقد اعتبر فريديريك هذا اول ملك مبدع وخالق وضع الكثير انطلاقا من المناهج العربية . من ذلك وضعه لنضرائب المباشرة وغير المباشرة والهيكل العسكرية والرسوم الجمركية واحتكار الدولة للمعادن وبعض البضائع مما كان يعرف في الشريعة الاسلامية منذ القرنين التاسع والعاشر ولكنه اصبح نموذجا احتذته اوربا كلها .

وقد كان الفرنج في فلسطين يتلقفون الآراء والنظريات الاسلامية لا فرق بين الموراني والتكنولوجي منها خاصة في مجال الزراعة والتجارة وتنظيم الصحة العمومية ، ومن مظاهر هذا التأثير بروز روح التسامح بدل العنف لدى الامرنج الذين كانوا يحذون حذو المسلمين بفلسطين وسوريا في كل نصرقاتهم بل ان نظام الكثير من المؤسسات المشيحية مثل les templiers

استولوا في البحر الابيض المتوسط . والموحدون هم اول من لقن مصطلحات التجارة الدولية ايضا لاوريا . هذا وان اول بانثرة نتجت عن حرية التبادل التجارى بين الشرق والغرب خاصة في المتوسط هي ظهور عملاء تجاريين مهدوا للمبادلات الدبلوماسية فاصبحوا عبارة عن قناصله اوروبيين على التراب الاسلامي بعد الحروب الصليبية وقد بادر الايطاليين والقطلانويين الاسبان وتجار جنوب فرنسا (ناحية بروفانس) الى اقامة هذه القنصليات في الشرق الاسلامي فكان من لوازم هذا التأثير ادراج نص قانوني في دستور بلدية مرسيليا منذ القرن الثالث عشر حول احترام ملكية الاجانب ولو في ايام الحرب وذلك احتذاء بما كان يتمتع به التجار الفرنسيون على الشواطىء المصرية والسورية ومعلوم ان حماية المسافرين والتجار الاجانب كانت تنسم منذ اوائل الاسلام بسمة الوجوب في دار الاسلام ، وقد تبلور التأثير الاكلامي عمليا في التنصيص على هذه المبادئ فعلا في المعاهدات التجارية . مثال ذلك المعاهدة التي امضيت عام 895 هـ / 1489 م بين جمهورية فلورانس والسلطان المملوكي تايقباى امير التلمعة بالقاهرة وقد تم توقيعها بعد ثلاث سنوات من المفاوضات برزت خلالها اولا كمرسوم سلطاني لتوائره الادارية بمصر وسوريا قبل ان تكون معاهدة مع تجار اوروبيين . وقد نص هذا المرسوم بالاضافة الى حماية التجار وضمان حقوقهم على عدة بنود تتعلق برسوم الجمارك (14 %) والقواعد الادارية المتبعة واطامة تنصلية بين التجار داخل مفاذتهم ووسائل تحويل القروض بل نص المرسوم حتى على امكان التحكيم على يد السلطان بين تجار فلورانس وتجار اوروبيين آخرين على الاراضى لو المياها المملوكية كل ذلك انطلاقا من الشريعة والتقاليد الاسلامية .

وقد ادت المبادلات التجارية بين الشرق الاسلامي واوريا لا الى امضاء معاهدات دولية نحسب بل الى تطوير الاعراف الجمركية والقوانين الادارية والبحرية والحربية مع اوربا الغربية ، وقد تأسست في الاندلس عام 741 هـ / 1340 م قنصلية للبحر كما وضعت مدونة للتقاليد والقواعد تجمعت فيها نصوص ظهرت منذ القرن الحادى عشر الميلادى ايام الموحدين ، وقد تم ذلك اولا في برشلونة حيث نشرت مجموعة قواعد لتنظيم التجارة البحرية والنص على عدم للمسؤولية الجماعية مما لم يعرف الا خلال القرن

ا او فروسيو المعبد الذين تكونوا بفلسطين) و hospitaliers كان مستبدا منذ اوائل القرن الثاني عشر من التنظيمات الاسلامية خاصة منها نظام الرباط، وقد برزت الفلسفة الاسلامية آنذاك وربطت بصلبة وثيقة بين القانون والاخلاق وبين الفرد والحكومة وظهر الانسان في عمله الخلاق كشخصية مستقلة نحاول ان نخلق من خلال القانون الشروط الاجتماعية التي تبرز كرامة الانسان ومسؤوليته ، وقد ترجم الكثير من الدراسات الاكاديمية في القانون والإدارة بايطاليا بين النصوص العربية وراجت بأوروبا كلها على يد الاساتذة الذين كانوا ينتقلون حسب العادة من جامعة الى أخرى ، وقد كان لهذا الطابع الخلقى في الشريعة الاسلامية اثره الاسمي في أوروبا المتوسطية مما رفق الشعور والحاسة القانونية وكان هذا المظهر بدون شك الميزة المثلى في الآثار الاسلامية التي كينت نظرية العدالة وتطبيقاتها الفعلية عند الغربيين ، من ذلك اعتبار كل من نتجه انيه انتهمه برينا الى أن يتحقق العكس وهذا هو مبدأ براءة الاصل الذي جاء به الاسلام منذ البداية ومعلوم أن (لويس التاسع) او لويس القديس (1270 م) ، ملك فرنسا الذي عاش بفلسطين وخالف علماء الكلام أمثال (طوماس الاكوينى) ، قد تأثر مباشرة بالاسلام في بنايهم التطبيقية بأرض فلسطين فظهر ذلك في اصلاحاته

الشريعية وقد اشار الى ذلك Joinville في مذكراته (Mémoires) وكان قد صاحب لويس التاسع الى مصر (توفى عام 1317 م) (كما ذكر ذلك Charles Klein في كتابه (لويس القديس ملك بين اقدام الفتحاء باريس 1970 ص 60) .

وهكذا يمكن القول بان تأثير الاسلام في أوروبا قد شمل كل المجالات سواء منها الدبلوماسية (باحداث تنصليات) أم اقرار مبدأ شخصية القانون وكرامة الاجنبي وضمان حقوقه وأساليب اعلان الحرب ووسائل تمويض العدو وحماية الاسرى والمرضى والمجزة واستعمال الشارات الضوئية خلال المعارك الليلية وحام الزاجل في المواصلات وطريقة توزيع الغنائم ومبادئ الفروسية ، وقد بلغت هذه التأثيرات الانسانية حتى ملوك الجرمان الذين كان لرهبانهم أوثق الصلات ببلاط فريديريك الثاني بصقلية .

على أن المغرب بالخصوص كان له بلاضافة الى البادرات الخلافة في العصر الموحدى ابداعات اشار اليها الاستاذ كايبى (Caillé) في الكتاب الذى وضعه حول المعاهدات والائتمات والمراسيم في عهد السلطان سيدى محمد بن عبد الله حيث أبرز طابع الخلق والابداع لكثير من المبادئ التي اندرجت في مدونات القانون العمومى الدولى بأوروبا .